من حضارة الشعر ... الى حضارة العلم !

بقلم الدكتور أبو القاسم سعد الله

اثر نكبة جوان (يونيو) ١٩٦٧ ظهرت في المجال العربي عدة افكار انتقد اصحابها الاوضاع العربية الفكرية والسياسية والاجتماعية، ودعوا الى خلق جو جديد يتلاءم مع متطلبات العصر . لان المعركة ، في نظر هؤلاء قد كشفت عن ضعف خطير في الحياة العربية المعاصرة بالمقارنة الى حياة اعدائنا . وقد كانت هذه الانتقادات مفيدة مثيرة ولكنها لم تذهب الى ابعد الحدود ، فتدعو الى القيام بثورة ثقافية عربية شاملة قوامها القلم الصادق والتواضع الخلاق ، والجدية البناءة .

حقا ان تلك الانتقادات للاوضاع العربية الراهنة التي كشفت عنها حوادث جوان كانت قد فتحت المجال امام النقد الذاتي . ولكننا كنا ننتظر منها ان تواصل نفس الطريقة باسلوب اكثر فعالية ودعوة اكثر صراحة ، واذا كنا نعترف بان بعض النظم العربية لم ترحب بهذه الانتقادات ، بل لقد ذهب بعض هذه النظم الى كبتها وخنقها ، فان ذلك لا يعفي الكتاب العرب ، وهم طليعة هذه الامة ، من مسؤولية خطيرة يتحملونها امام الشعب الذي ينتظر منهم الكثير ...

ولا بد قبل المضي من وقفة قصيرة لنعرف مفهوم الثورة الثقافية العربية ، ولعلنا لا نحتاج الى كثير من التعريفات القاموسية وحتى الايديولوجية في هذا المجال ، ويكفي ان نلجأ الى تعريف للثورة هو التغيير والتطوير والتحول ، وقد يعرفها البعض بالانقلابية وخلق اوضاع جديدة مغايرة للاوضاع الراهنة . والثورة الثقافية كما تكون حمراء ، مصحوبة بضجيج وعنف وارهاب او بقليل من ذلك مع رفق وتسامح وتوجيه حكيم ، وليس من الضروري ان تكون الثورة الثقافية مرتبطة بالانقلابية السياسية والارهاب العسكري اذ الثورة تعني قبل كل شيء ، نقد الاوضاع والمفاهيم الحضارية الراهنة والدعوة الى خلق مفاهيم جديدة . وقد يصحب هذه الدعوة صراع حاد لا بين القديم والجديد كما قد يتخيل البعض ولكن بين نوعين من الحياة واسلوبين من المعيشة .

اما الثقافة فنعني بها المعنى العلمي القائم على التفكير الواعي المشارك الخلاق ، واما الثقافة بمعنى الفنون والاداب الرافية فهو مفهوم ضيق خاص نود ان لا يشمله هذا التعريف ، والثقافة التي ندعو اليها تؤمن ايمانا قويا بالتحول الجذري على مستوى الاداب والفنون ايضا ، وتدعو الى الارتفاق بها الى العملية والايجابية والتخلص من الروح الطبقية الضيقة .

وهنا نصل الى النقطة الثالثة من هذه التعاريف وهي «العربية» ان الامة العربية تعيش في ظروف خاصة لا تعيشها مثلا امة الصين ولا امة روسيا ولا امة امريكا . ومن الواجب علينا العناية بدراسة اوضاعنا الخاصة في نطاق حاجات امتنا الى مواجهة تحديات العصر والعيش في امن وعزة وسلام . لذلك وجب ان ينطلق مفهوم « الثورة الثقافية » من نقطة ارتكاز عربية بالدرجة الاولى ، ولكن هذا لا يعني الانعزالية والانغلاق على ما يجري في العالم من هزات فكرية لا بد ان تؤثر فينا ولو كرهنا .

وانطلاقا من هذه التعاريف التي قلنا بانها ليست قاموسية ولا ايديولوجية بل وليست علمية دقيقة ، يمكن ان ندخل في صميم الموضوع ، ونتناول ما نريد من الثورة الثقافية العربية . ويمكننا ان نقسم هذا الموضوع الى قسمين : قسم يعرض وينقد بعض اوضاعنا الحضارية المعاصرة ، وقسم يقدم بعض الاقتراحات التي نظن ان هذه الثورة يجب ان تنطلق منها وتبدأ بها .

ان اهم ما يميز حياتنا العربية المعاصرة هو السلبية . اننا نشاهد ونعيش احداثا كبيرة تجري من حولنا دون ان نحس بها او نتدخل فيها . فعلى الصعيد العربي نجد اوضاعا سياسية واجتماعية واقتصادية تطرأ على مجتمعنا من وقت لآخر دون ان يكون لنا فيها كلمة او رأي . وما زال اكثرنا يعيش في انعزالية تامة عن هذه الامور كأنها لا تعنيه او لا تقرر مصيره . وعلى الصعيد العالمي كذلك تتجدد كل يوم الصراعات على مناطق النفوذ ونشر الايديولوجيات وتقدم العلوم ، ونحن لا نزال في قدرية صامتة امام هذه الامور التي يمكن ان نسميها بتحديات العصر .

وتحديات العصر هذه كثيرة متنوعة ، ولعل من اهمها التقدم العلمي والتحول التقني الذي يغير حياة الانسان المعاصر ولعل من اهمها ايضا هذا الغزو الصهيوني الامبريالي لبلادنا . ان البعض لا يزال يغط في التقاليد فيرى التقدم العلمي جناية على « الروح الشرقية » الهادئة « وحضارة الشعر » العريقة ، وكفرانا بالطبيعة والانسان ، ويرى في الغزو الصهيوني الامبريالي درسا وامتحانا « لابد » ان يزولا وان يد الله التي ازاحت كل الصليبيين عن الشرق منذ قرون قادرة ايضا على ازاحة الوحش الصهيوني عنه في القرن العشرين . ان هذه الروح السلبية التواكلية ، او ما نسميه بروح حضارة الشعر والروح الشرقية ، هي شر لا بد من محاربته ، وهي مرض لا بد من التخلص منه .

وقد تكون ظاهرة التخلف المتولدة عن قرون من الجمود الفكري والسياسي والاضطهاد الاستعماري اكثر طواهرنا المعاصرة خطورة على مستقبلنا ومصيرنا . والتخلف الذي نعنيه يتجاوز انخفاض مستوى المعيشة والهبوط الفكري لدى المثقفين والحكم المطلق في السياسة . ان هذه الامية متفشية الى أقصى حدود التفشي لدى جماهيرنا العربية . واذا استثنينا القليل من الجهود التي تبذلها بعض المصالح العربية ، فان الامية في مجتمعنا قد بلغت حدا مخيفا يجعل اي نوع من انواع المشاركة الفعالة لهذه الجماهير في معركة المصير غير مأمونة العواقب ، وغير ذات اهمية . ومن الجناية على هذه الجماهير ان ثرواتها الطبيعية ومصادر دخلها الاساسية تصرف في شتى انواع البذخ والترفيه على أقلية محظوظة وطبقة ممتازة في عصر نحن في اشد الحاجة فيه الى الثقافة الشعبية ونشر الوعي وازالة الحواجز الطبقية وتكوين مجتمع « الصالح العام » .

ولا بد من الالحاح على هذه الطبقية الثقافية التي نميز واقعنا العربي . وليس بخاف أن قرون الجمود وسنوات الاستعمار المظلمة قد مكنت لطائفة من الشعب العربي أن تسمن فكريا كما سمنت اقتصاديا . وبذلك تكونت « نخبة » ممتازة في ميدان الفكر والثقافة كما تكونت « اقطاعيات » ممتازة في ميدان الاقتصاد والاجتماع . واذا كانت هذه الاقتصاديات قد بدأت تتساقط كاوراق الخريف في الوطن العربي ، فان النخبة الثقافية ما تزال تمد جذورها وتبسط نفوذها، وسوء التوازن بين التقدم الاجتماعي والاقتصادي الذي احرزت عليه بعض المناطق العربية وبين النخبة راجع الى هذه الظاهرة . ان هذه النخبة العربية ما تزال تجد مصالحها مرتبطة ارتباطا وثيقا بالاستعمار ومع القوى المعادية للثورة العربية ، لكونها في الواقع مدينة له بوجودها وامتيازاتها وتوجيهها .

ويتصل بهذا الارتباط بين النخبة الثقافية وبين الاستعمار هروب او هجرة المثقفين من الوطن العربي الى الخارج . نحن لا ننكر ان هناك مثقفين شرفاء حاولوا التعايش مع اوضاع بلادهم السياسية والاقتصادية فلم يفلحوا ، فلم يسعهم الا الهجرة لما لديهم من فكر وما حصلوا عليه من ثقافة علمية نادرة . ولكن يجب الاعتراف بان كثيرا من هؤلاء المثقفين المنازين تصلح فيهم كلمة « هروب » اكثر من كلمة « هجرة » فهم لعدم التزامهم بمصير امتهم ولشعورهم بانهم طبقة ممتازة وسط جماهير متخلفة فضلوا العيش حيث يجدون الراحة والثروة والامكانيات وحرمان شعبهم الذي تثقفوا على حسابه من مواهبهم ومساهمتهم في انقاذه من براثن التخلف . وعلى اية حال فان هذا لا يعني اطلاقا تبرير موقف بعض النظم العربية في محاربة هذه النخبة وسد الطريق في وجهها على المستوى المحلي .

واذا اردنا الصراحة في هذا المجال نجد ان روح التقليد تغلب على المثقفين اكثر من غيرهم من طبقات الشعب . وهذه نقطة خطر . فالتقليد لدى الجماهير لا خطورة فيه اذا قورن بالتقليد لدى المثقفين. ولعل اهم ما يميز ما وصفناه « بحضارة الشعر » هو الرتابة والتكرار والحشو والخيلاء والنفاق . والرتابة في بحور الشعر واجترار الابل انعكست عندنا على طريقة تفكيرنا وحكمنا على الاشياء. ولو احصينا انتاجنا من المدائح والاهاجي والمفاخر ، وهي انواع من الكذب والنفاق والتكبر الفارغ ، لوجدناه يزيد على ثلثي انتاجنا الشعري عامة . اما نثرنا فان اساسه وعموده الشروح الدينية والتلفيقات الصوفية ، ونسبة الانواع الاخرى فيه ضئيلة جدا .

وتنسحب روح التقليد والرتابة والاجترار على انتاجنا الجامعي ايضا . فالمفروض اننا في عصر البحث العلمي ، والدراسات الجامعية المعمقة الرصينة تكون قد تجاوزنا عهد « حضارة الشعر » الى عصر « حضارة العلم » ، ولكن كل الدلائل تدل على ان ابحاثنا الجامعية ما تزال تتخبط في التقليد ، وما زلنا ندرس الشعر والنثر الفني على طريقة ابن رشيق والجرجاني، والتاريخ والجغرافية على طريقة ابن الاثير وياقوت الحموي ، والاقتصاد على طريقة « اليوم خمر وغدا امر » والنحو على طريقة سيبويه ، وهلم جرا .

وما زلنا نحكم على جودة العمل الجامعي بما يحتوى عليه من عدد الصفحات لا بما فيه من افكار جديدة .

ومع ذلك نحن متمذهبون منحمسون لهذا المذهب او ذاك ،نتراشق من اجله بالكلمات ونتخاصم على اساسه ، ونقيم من أجل ذلك احزابا وشيعا وطوائف ، وقد يزداد الامر خطورة فنقيم من اجله متاريس على الحدود او ندخل في حرب ساخنة . ان الانتماء الايديولوجي بالمفهوم الصراعي الدولي خطر يهددنا من الداخل .وفي اعتقادنا ان الامة العربية لها من امكانياتها الفكرية ما يمكنها به ان تشق طريقها مستقلة عن الانتماءات الايديولوجية الحادة ، ولا سيما في المرحلة الراهنة من تطورها .

ولكن القارىء قد يتساءل : اذن :ما العمل ؟

ان الجواب على ذلك بسيط وصعب في نفس الوقت . انه بسيط لاننا تعودنا ان نتساهل في اصدار القرارات والتوصيات العامة التي تخرج من الشفاه لا من القلوب ، وتعودنا كذلك ان نعبر عن سعادتنا واغتباطنا بلقاءاتنا في ذاتها ،دون تقدير لعواقبها . كما تعودنا ان نورد عبارة « المصير العربي » و« معركة المصير » و(القضايا المصيرية) ونحو ذلك من الالفاظ والتعابير التي اوشكت ان تفقد قيمتها وتصبح مبتذلة ، رغم انها حقا خطيرة المدلول لو اعطيت حقها من العناية والجدية ، ولكن هذا ، على كل حال ، هو جزء من مواقفنا السلبية وميزاتنا اللفظية ، اي انه جزء من « حضارة الشعر » .

والجواب على ذلك صعب ايضا لانه يفرض علينا ان نغير من سلوكنا وان نفكر بطريقة جديدة . وهنا نعود الى اصداء نكسة ١٩٦٧ في النقد الذاتي والدعوة الى العلمية . ان ذلك هو صميم الموضوع . انه يمكن ان نختلف في قيمة النصر او الهزيمة ولكن لا يمكن ان نختلف في معناهما ، ومع ذلك فالعقل العربي المعاصر ، العقل الشعري اذا صح التعبير ، قادر على ان يختلف حتى في معنى النصر او الهزيمة وان يعكس المفاهيم فيجعل تشرق الشمس من المغرب وتغرب من المشرق ، كل ذلك تحت تأثير « حضارة الشعر » و« حداء العيس » .

واذا كنا لا نؤمن بالخوارق في اشياء كثيرة فاننا نؤمن اشد الايمان بان العقل الانساني قادر على صنع المعجزات . وآيات العلم نبهرنا كل يوم بمعجزاتها وخوارقها فنصدق خاشعين خاضعين مكبرين ومحولقين. فالله الذي شاء ان يكون عبقر وعكاظ هو الذي شاء ان تكون سفن وصواريخ الفضاء وقنابل الذرة والهيدروجين .

وفي هذا الاطار يمكننا ان نتساءل : الا يمكن القيام بثورة ثقافية عربية ؟ لماذا لا يكون منطلق هذا المؤتمر تحديد معالم هذه الثورة ورسم اهدافها والشروع في تنفيذها ؟

هل نظل هكذا نصدر التوصيات والقرارات التي ينسي بعضها بعضا وينسخ احيانا بعضها بعضا ؟ اليس بامكان العقل العربي المعاصر ان يتخلى عن تقاليد حضارة الشعر الى آفاق حضارة العلم؟ بلى ، اننا نعتقد ان ذلك ممكن ، بل واجب . كما نعتقد ان في امكان الكتاب العرب ان ينقضوا على العهد بان يدخلوا فعلا في معركة ضد التخلف ، واللفظية ، والامية ، والامبريالية والصهيونية والتبعية . وهذه بعينها هي ابجديات الثورة الثقافية والخروج من حضارة الشعر .

ويجب ان يكون واضحا اننا لا نرفع الثورة الثقافية كشعار .ان

ذلك ابعد ما يكون عن هدفنا . ان الثورة الثقافية عندنا هي قبل كل شيء ايمان بضرورة التحول الجذري في المجتمع العربي ، وهي ثانية عمل دائب صامت متواضع نراه في نتائجه ولا نسمع ضجيجه .والثورة الثقافية على هذا الاساس لا يتبناها ويتحمس لانجازها الا مثقفون ثائرون . وقد يقول قائل انك تبني على الرمل وتسبح في الهواء لانه لا وجود لمثقفين ثوريين في الوطن العربي الا ما شذ .والجواب على ذلك انني حذرت منذ البداية من الفكرة الطبقية في الثقافة لانها خطر لا يقل حدة عن الرجعية في السياسة والردة في العقائد. وعلى الجيل الصاعد من المثقفين ان يعلنوا الحرب على(الاجترارين) في الثقافة كما اعلنوا الحرب على المترددين في السياسة ، و« المنحرفين » في العقائد .

والواقع ان تحقيق الثورة الثقافية اصعب واشق من تحقيق الثورة السياسية . ولاضرب مثلا على ذلك بالجزائر . فالجميع يعلم مدى قسوة الثورة التحريرية وطولها وضحاياها من البشر والمدن والثروات الطبيعية والمصالح الحيوية . ومع ذلك فالجزائريون اليوم قد يشعرون بأن ذلك كان اخف وطأة واهون مسؤولية من الصراع من اجل اعادة المكانة للغة للعربية وللشخصية القومية . لذلك اصبح تحقيق التعريب الشامل في جميع مستويات التعليم ، والقضاء والادارة مطلبا حيويا وشرطا اساسيا لتحقيق الثورة الثقافية التي هي قضية الساعة هناك .

ويتبع ذلك العمل الدائم على استعادة الشخصية الوطنية وبعث التراث ، كل ذلك بعقلية متفتحة لا تنسى ابدا التزاماتها نحو التقدم الانساني العام والاستفادة من انجازات العقل البشري في مختلف العصور .

فما الذي يمنع ان يقوم العرب ، وعلى رأسهم ادباء الطليعة، بثورة ثقافية على مستوى الوطن العربي ؟ اننا نعتقد ان ذلك ممكن ومحتم .

ويمكننا ان نلخص اهداف هذه الثورة فيما يلي :

١ ـ خلق ادب جماهيري متحرر من الارتباطات التقليدية والطبقية ويجب ان يكون واضحا اننا لا ندعو هنا الى ادب سوقي وضيع.

ان الجماهيرية في الادب لا تعني اكثر من ان يكون انتاج الاديب في خدمة اكبر عدد ممكن من افراد المجتمع .

٢ ـ ولكي تكون السمة البارزة لهذا الانتاج هي الروح العلمية المتفتحة ، فان على ادباء الثورة الثقافية ان يرفضوا الخرافيات والقدريات وان لا يقبلوا الانغلاق على ثقافة ضيقة يتوقعون فيها اصدارا وايرادا . ان مستقبل الامة العربية مستقبل عالمي انساني ، لذلك وجب على ادباء هذه المرحلة ان يبشروا بهذا المستقبل الشامل الواعي المنفتح .

٣ ـ ولتحقيق ذلك لا بد من تكريس جميع جهود الامة العربية الفكرية وحشد طاقاتها المعنوية .

وهذا يستلزم العمل على استعادة النخبة المهاجرة وافساح المجالات امامها لكي تنتج على المستوى القومي بدلا من ان تظل مشردة تعمل لحساب امة اخرى قد تكون عدوة للامة العربية .

وافساح المجالات يعني توفير الحرية الضرورية للانتاج وتوفير شروط العيش الضرورية .

٤ ـ وعندما يتحقق ذلك يكون باستطاعة الثورة الثقافية ان ان تشق طريقها بأعصاب قوية مدعمة بالعلم . ومن هنا يتحتم على هذه الثورة ان تنبذ كل ما هو شعري او انشائي في التفكير . فالروح العربية الجديدة يجب ان تكون قائمة على الايمان بالانسان وعلى الانسان وان تتيح المجال لثورة العقل لا العاطفة . ومن هنا كان علينا ان نتخلى عن الروح الشعرية الى الروح العقلية اذا صح التعبير.

٥ ـ ولا تستطيع الامة العربية ان تشق هذا الطريق الصعب الا بالقضاء على الامية ومحاربتها . ومن المسلم به انه لا يمكن للامة ان تفاخر وتنتصر اذا كان ثمانون او تسعون بالمائة منها اميين ، وعلى هذا الاساس يكون مبدأ الثورة الثقافية الذي لا يقبل المناقشة العمل على نشر التعليم على اوسع نطاق والارتفاع بهذا التعليم الى مستوى العقل الرياضي لا الروح التقليدية ، اي ان يكون تعليما جماهيريا حيا هادفا وليس مجرد خلق قراء او اتباع يسافون بالكلمات الجوفاء والعبارات الساحرة .

٦ ـ ولا بد من سلاح حاد اخر تشق به الثورة الثقافية طريقها ، وهو البحث العلمي المجرد .

ان انتاج الرسائل الجامعية يجب ان لا يقاس بكثرته بل بمفعوله ونوعيته وجدته ، والرسالة الجامعية ليست غاية في ذاتها بل هي بداية في طريق صعب وهو طريق الاكتشاف والبحث المتواصل . ويجب ان تخرج رسائلنا من طريقة التراجم الشخصية وجمع المعلومات العامة وتحقيق ما انتجه القدماء ، وان تتجه الى الابداع والعمل الذاتي والاكتشاف الذي لا يكون الا بعد معاناة وتجربة عميقة مرة.

فالبحث العلمي في الحقيقة هو اساس الثورة الثقافية وسلاحها الى المستقبل .

٧ ـ ومن اهم وسائل تحقيق الثورة الثقافية وفي نفس الوقت من اهم وسائل البحث العلمي اجادة اللغات الاجنبية والاستفادة منها تدعيما للغة العربية ودفعا للعقل العربي . وهذا لا يعني الغض من قيمة اللغة القومية .

ان العمل على ان تكون العربية لغة علم معاصر هو من اؤكد واجبات الثورة الثقافية ، ولكن هذا لا يعفينا ابدا من مهمة الاستفادة من اللغات الاخرى ولا سيما في مجال البحث والدراسة.

وهذا لا يعني ابدا اننا اتينا على كل ما يجب على الثورة الثقافية ان تقوم عليه وان تحققه . فما يزال هناك فراغات في الوسائل والاهداف نأمل ان تملأعن طريق المناقشات الحرة البناءة . وهدفنا من اثارة هذه القضية طرح موضوع نعتقد انه في منتهى الخطورة اذا كنا نريد لامتنا ان تتخلص من عصر الشعر والخطابية والعاطفية وان تتجه الى عصر العلم والبحث والاختراع .

وليس هذا البحث سوى مساهمة في هذا المجال . ولدينا الثقة في ان الاديب العربي ، الاديب الواعي لمسؤولياته القومية ، سيكون في طليعة الداعين الى تحقيق هذه الثورة الثقافية على مستوى الوطن العربي .

(الجزائر) **ابو القاسم سعدالله**

آخر ما اصدرته دور النشر اللبنانية والعربية

بالاضافة الى العرض الدائم لاحدث مجلات الازياء والموضة الاوروبية

تجدونه

في مكتبة انطوان

فرع : شارع الامير بشير والحمرا

بيروت